وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الثالثة والعشرون

بداية الجهاد وغزوة بدر

عباد الله معًا على درب السيرة نسير، معًا لسيرة الرسول ﷺ ندرس ونعتبر، معًا لهذا الخير الوفير وهذا الإيمان العظيم نقتبس منه الأنوار والحكمة، معًا بين نفحات العطر، وومضات الإشراق، نستكمل سيرة عظيم الأخلاق ﷺ، حيث نتناول مقطوعات زكية من سيرة خير البرية ﷺ، مبتدئين بباقات نضرة من تلك الحدائق العطرة.

وقد علمنا رحمني الله وإياكم أن الرسول ﷺ قد أسس دعائم الدولة الإسلامية، وأرسى الله ﷻ معالم عظيمة وأركانًا كبيرة، فبات المسلمون وقد اكتملت لهم معاني الإيمان، والإسلام، والنصر، والتمكين.

أيها الإخوة المسلمون عباد الله: دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية، فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوي الجندي إلى قلعته الشامخة، وأخذوا يستعدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها، وقد تَعَلَّمُوا أن الضعف مدرجة إلى الهوان، مزلقة إلى الفتنة، وقد تَعَلَّمُوا أن المرء لا يُقَدِّر العافية إلا بعد البرء من المرض، ولا يعرف قيمة الغنى إلا بعد التخلص من ذل الحاجة.

رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، عداوة ما بعدها عداوة، وقد رأى المسلمون ذلك، فها هو الرسول ﷺ تعقبه القتلة ألف ميل ليغتالوه، وسواد المهاجرين نُهِبَ مالُهم، وسلبت دورهم، وشردوا من البلد الحرام.

إن حالة الحرب قائمة يقينًا بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد، فلا بد من التأهب لكل طارئ، والتربص بكل هاجم، وتجهيز القوة التي تؤدب المجرمين يوم يتطاولون.

والجهاد الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول ﷺ وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد، فلقد كان فريضة لحماية الحق، ورد المظالم، وقمع العدوان، وكسر الجبابرة.

والجهاد فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى دفاعا عن الحق ولرفض الظلم، وفرضه الله تعالى ليدخل الناس في دين الله أفواجا، الجهاد الذي بينه النبي نزلت آياته قاطبة كلها في المدينة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٩ – ٦٠].

وأخذ النبي ﷺ يبين للمسلمين ما بينه الله من إعداد القوة قائلا: **"لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"**[1]، وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: **"رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا"**[2].

فأخذ الرسول ﷺ يرسل سراياه المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة وتستطلع أحوال القبائل الضارية هنا وهناك، **"فَلَمَّا كَانَ فِي رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَبَرُ الْعِيرِ الْمُقْبِلَةِ مِنَ الشَّامِ لِقُرَيْشٍ صُحْبَةَ أبي سفيان، وَهِيَ الْعِيرُ الَّتِي خَرَجُوا فِي طَلَبِهَا لَمَّا خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانُوا نَحْوَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، وَفِيهَا أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ لِقُرَيْشٍ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ لِلْخُرُوجِ إِلَيْهَا، وَأَمَرَ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا بِالنُّهُوضِ، وَلَمْ يَحْتَفِلْ لَهَا احْتِفَالًا بَلِيغًا؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ مُسْرِعًا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا فَرَسَانِ"**[3]، إن الضربة التي تنزل بأهل مكة لو فقدوا هذه الثروة

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٧٩٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٨٨٠).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٨٩٢).

[3] زاد المعاد (١٥٣/٣)، لابن القيم رحمه الله.

موجعة حقًا، وفيها عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر، ورد الحقوق المنهوبة والأوطان المسلوبة.

و لم يعزم الرسول ﷺ على أحد بالخروج و لم يستحث متخلفا.

أما أبو سفيان فقد أرسل إلى قريش ليدركوه، "**وَحَشَدُوا فِيمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُمْ أَحَدٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا بَنِي عَدِيٍّ، فَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾**[الأنفال: ٤٧]"[1].

ووَلَّوْا وجوههم إلى الشمال؛ ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم، ولكن أبا سفيان لم ينتظر النجدة المقبلة، بل بذل أقصى ما لديه من حذر ودهاء لمخاتلة[2] المسلمين والإفلات من قبضتهم، حتى استطاع الإفلات.

وأرسل أبو سفيان إلى قريش أن يرجعوا، ولكن رفض أبو جهل، وأراد أن يسمع العرب بهم فيهابونهم، وهذا الذي عالن به أبو جهل هو ما كان يحذره الرسول ﷺ، فإن تدعيم مكانة قريش وامتداد سطوتها في هذه البقاع بعد ما فعلت في المسلمين ما فعلت يعد كارثة للإسلام؛ ولهذا أصر الرسول ﷺ على تعقب المشركين كيف كانوا، وحذر صحابته من عقبى العود السريع إلى المدينة، يقول تعالى: **﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾**[الأنفال:٥ – ٦].

والذين كرهوا من المؤمنين لقاء قريش ما كانوا ليهابوا الموت، ولكنهم لم يعرفوا الحكمة في خوض معركة مباغتة دون اتفاق، ولكن الرسول ﷺ وَزَنَ الأمور كلها، فوجد الإقدام

---

[1] زاد المعاد (١٥٤/٣)، لابن القيم رحمه الله.

[2] قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (١٩٩/١١): خَتَلَهُ يَخْتِلُهُ ويَخْتُلُهُ خَتْلًا وخَتَلاناً وخَاتَلَهُ: خَدَعه عَنْ غَفْلة.

خيرًا من الإحجام، وقد اختفت على عَجَلٍ مشاعر التردد، وانطلق الجميع خفافًا إلى غايتهم.

وبدأت المعركة! وكان يوم بدر من أهم أيام المسلمين، فخاض الرسول ﷺ هذه المعركة مع الصحابة رضي الله عنهم الذين رباهم، فأحسن تربيتهم.

أيها الإخوة المسلمون، إن الأمر ليس بالسهل في السير، والرجوع، والإقدام، والإحجام، فمعنى ذلك: أنهم سوف يواصلون السير إلى بدر-وهذا ليس سفرًا قاصدًا أو نزهة لطيفة- وأنهم سيقطعون مسافة ١٦٠كيلو متر أو أكثر بين المدينة وبدر، و لم يكن مع الرسول ﷺ وصحبه رضي الله عنهم غير سبعين بعيرًا (وسميت بدر باسم رجل كان له عين ماء فيها).

فقد صح أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "**كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**"[1].

ونزلت قريش بالعدوة القصوى أي في جنوب بدر، وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضني إلى العدوة الدنيا أي في شمال بدر، وسار أبو سفيان مع ساحل البحر الأحمر.

يقول سبحانه: ﴿ **إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[الأنفال: ٤٢]، فقد اقتربت الفرق الثلاثة من بعضهم، ولكن كل منهم لا يعرف شيئًا عن الآخر.

حقًا إنها معركة سَيَّرَها الله ﷻ

[1] رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (٣٩٠١)، وقال الألباني رحمه الله في مشكاة المصابيح (٣٨٣٨): إسناده حسن.

وأرسل المسلمون يتحسسون الأمر، فأصابوا غلامين من قريش يمدانهم بالماء، فأتوا بهما وسألوهما، فأخبراهم أنهما لقريش، وعلموا منهما أن عددهم بين التسعمائة والألف، ومعهم صناديد قريش، "**وَبُنِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرِيشٌ يَكُونُ فِيهَا عَلَى تَلٍّ يُشْرِفُ عَلَى الْمَعْرَكَةِ، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ الْمَعْرَكَةِ، وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَمَا تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَ إِشَارَتِهِ**[1]"[2]، وسبقوا إلى عيون بدر، فناموا نومًا هادئًا، يقول تعالى: ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** ﴾[الأنفال: ١١].

يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "**لَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ وَمَا فِينَا إِنْسَانٌ إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي إِلَى شَجَرَةٍ وَيَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ**"[3].

كان ﷺ يدعو ربه ويقول: "**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**"[4].

فَعَل ذلك أبو بكر ﷺ من رقة قلبه على رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر ﷺ في مقام الرجاء، وكان الرسول ﷺ في مقام الخوف؛ لأن لله أن يفعل ما يشاء، فخاف ﷺ ألا يعبد الله في الأرض بعدها، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾[القمر: ٤٥][5].

---

[1] روى مسلم رحمه الله بعضه في صحيحه بلفظ مقارب (١٧٧٩).

[2] زاد المعاد لابن القيم رحمه الله (١٥٧/٣).

[3] أخرجه النسائي رحمه الله في السنن الكبرى (٨٢٥)، وقال الألباني رحمه في صفة الصلاة (١٢٠/١): إسناده صحيح.

[4] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٦٣).

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٥٣).

وكشفت الحرب عن أنيابها، وتواجه الجمعان، وكعادة الحروب يومئذ: "**بَرَزَ عُتْبَةُ، وَأَخُوهُ شَيْبَةَ، وَابْنُهُ الْوَلِيدُ، فَقَالُوا: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَخَرَجَ فِتْيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ عُتْبَةُ: لا نُرِيدُ هَؤُلاءِ، وَلَكِنْ مَنْ يُبَارِزُنَا مِنْ أَعْمَامِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عُبَيْدَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، فَبَرَزَ حَمْزَةُ لِعُتْبَةَ، وَعُبَيْدَةُ لِشَيْبَةَ، وَعَلِيٌّ لِلْوَلِيدِ، فَقَتَلَ حَمْزَةُ عُتْبَةَ، وَقَتَلَ عَلِيٌّ الْوَلِيدَ، وَقَتَلَ عُبَيْدَةُ شَيْبَةَ، وَضَرَبَ شَيْبَةُ رِجْلَ عُبَيْدَةَ فَقَطَعَهَا، فَاسْتَنْقَذَهُ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ حَتَّى تُوُفِّيَ بِالصَّفْرَاءِ**"[1].

واستشاط الكفار غضبًا للبداية السيئة التي صادفتهم، فأمطروا المسلمين وابلًا من سهامهم. ثم حمي الوطيس، وتهاوت السيوف، وتصايح المسلمون: أَحَدٌ أَحَد، وأمرهم الرسول ﷺ أن يكسروا هجمات المشركين وهم مرابطون في مواقعهم، وقال لهم ﷺ: "**إِذَا أَكْثَبُوكُمْ، يَعْنِي كَثَرُوكُمْ، فَارْمُوهُمْ وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ**"[2]، أي: يرمون المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم حرصًا على الإفادة من النبال، وكان الرسول ﷺ يباشر القتال بنفسه، قال علي بن أبي طالب ﷺ: "**لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا**"[3]، انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين، وهم بين كر وفر، جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن، وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر، ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ وهو في عريشه أثناء المعركة يدعو الله ويتضرع إليه، فأمد الله ﷻ الرسول والمؤمنين بالملائكة يحاربون مع المسلمين.

فوَهَتْ صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة الدنيا، وقد نزل بنفسه ﷺ إلى الميدان يقاتل أشد القتال ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبالون شيئًا، فانكسرت قريش وأخذها الفزع، وصاح النبي ﷺ وهو يرى كبرياء الكفر تمرغ في التراب:

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٤/٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وبلفظ مقارب صححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود رحمه الله (٢٦٦٥).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٨٥).

[3] رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (٦٥٤)، وقال أحمد شاكر رحمه الله في مسند الإمام أحمد رحمه الله: إسناده صحيح (٦٤/٢).

"**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**"[1] بعد أن ألقى عليهم كفًا من الحصى، فأنزل تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[الأنفال: ١٧]، وحاول أبو جهل أن يوقف سيل الهزيمة النازلة، فأقبل يصرخ بهم وغشاوة الغرور لا تزال ضاربة على عينيه، يصرخ قائلًا: "**فَوَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا نَرْجِعُ حَتَّى نُقْرِنَهُمْ بِالْحِبَالِ، وَلَا أُلْفِيَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ قَتَلَ مِنْهُمْ رَجُلًا، وَلَكِنْ خُذُوهُمْ أَخْذًا**"[2].

ولكن ماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة؟! لكنّ أبا جهل -والحق يقال- كان تمثالاً للعناد إلى آخر رمق، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من كيانه لا ينفك عنه أبدًا.

فكان بينهم وسط غابة ملتفة، بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعًا جذعًا أمام حماس المؤمنين الذين اشتد بأسهم وساد هتافهم في الموقعة وهم يقولون: أَحَدٌ أَحَد.

يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ: "**إِنِّي لَفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ إِذْ الْتَفَتُّ، فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ، فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا، إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ: يَا عَمِّ، أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي وَمَا تَصْنَعُ بِهِ، قَالَ: عَاهَدْتُ اللَّهَ إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ، فَقَالَ لِي الْآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ، قَالَ: فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانَهُمَا، فَأَشَرْتُ لَهُمَا إِلَيْهِ فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّى ضَرَبَاهُ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ**"[3]، "**فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ حَتَّى بَرَكَ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ: آنْتَ أَبُو جَهْلٍ؟ فَقَالَ: وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ أَوَ قَالَ قَتَلَهُ قَوْمُهُ،**

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٧٧).

[2] أخرجه الطبراني رحمه الله في المعجم الكبير (٤٥٥٠)، وقال الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد (٩٩٥٦):فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩٨٨).

قَالَ أَبُو جَهْلٍ: فَلَوْ غَيْرُ أَكَّارٍ قَتَلَنِي"[1]، والأكار: الزارع والفلاح، وأشار أبو جهل إلى بني عفراء اللَّذَيْن قتلاه، وهما من الأنصار، وهما أصحاب زرع، ومعناه: لو كان غير أكار قتلني؛ لكان أحب لي وأعظم لشأني، فهوى عليه ابن مسعود ﷺ فقضى عليه.

والحق يقال أيها الإخوة المسلمون مع أن أبو جهل في هذا الشرك وفي هذا العناد وفي هذه الغشاوة الظلماء لكنه أفضل بكثير من المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، من الذين يبطنون الحقد، والحسد، والغيرة، والكراهية، ويظهرون التسامح والمحبة.

وقُتل أمية بن خلف، وقُتل عقبة بن أبي معيط في الأسر، وتحقق دعاء الرسول ﷺ، وقذف في طوي من أطواء بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش خبيث مخبث، وأما أبو لهب فقد كان بمكة ولم يخرج، وفجع لما عرف هذه الهزيمة، ثم أهلكه الله ﷻ بعد ذلك بقليل.

شيء عجيب، الرسول ﷺ قبل المعركة كان يشير إلى مواضع من الأرض، قائلًا: **"هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَمَا تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَ إِشَارَتِهِ"**.

ومثل هذه الأمور الكثيرة تتكرر في سيرة النبي ﷺ فتثبت الإيمان في قلوب الصحابة، وتثبت الإيمان في قلوبنا، وأن الله قال ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥** ﴾ [النجم: ٣ - ٥].

وأيضًا فإن الله وعده النصر، ومع ذلك لِمَ هذا الدعاء وهذا الابتهال؟! إن تلك عباد الله هي وظيفة العبودية التي خلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر في كل حال، يقول تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٠٢٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٨٠٠).

عباد الله، فالرسول ﷺ ضرب مثالًا رائعًا وتطبيقًا عمليًا وهو أنه يأخذ بالأسباب، ثم يتضرع ويدعو، ومع ذلك يقاتل ويحارب، لم يترك شيئًا، ولهذا كُتِبَ لهم النصر.

ويستغيث رسول الله ﷺ ويستغيث المؤمنون، يستغيثون بعد أن أخذوا بالأسباب، يستغيثون بعد أن طُبِّقَ شرعه، فاستجاب لهم ربهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٩ – ١٠].

فإن قيل:

ما الحكمة في نزول الملائكة مع أن جبريل وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله؟

أجاب السبكي رحمه الله: "**وَقَعَ ذَلِكَ لِإِرَادَةِ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَكُونَ الْمَلَائِكَةُ مَدَدًا عَلَى عَادَةِ مَدَدِ الْجُيُوشِ؛ رِعَايَةً لِصُورَةِ الْأَسْبَابِ وَسُنَّتِهَا الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ فَاعِلُ الْجَمِيعِ**"[1].

في هذه المعركة عباد الله التقى الآباء بالأبناء والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ، ففصلت بينهم السيوف، والتقى المقهور بقاهره، فشفى منه غيظه، فتجلت في هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ:

كان أبو بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل، فلما أسلم عبد الرحمن بعد ذلك؛ قال لأبيه: "**لَقَدْ أَهْدَفْتَ لِي يَوْمَ بَدْرٍ فَصَرَفْتُ عَنْكَ وَلَمْ أَقْتُلْكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: لَكِنَّكَ لَوْ أَهْدَفْتَ لِي؛ لَمْ أَنْصَرِفْ عَنْكَ**"[2].

الإيمان عباد الله الذي خالط بشاشته شغاف قلوبهم أذاب كل كلمة إلا كلمة واحدة: لا إله إلا الله

---

[1] فتح الباري (٣١٣/٧)، لابن حجر رحمه الله.

[2] المجالسة وجواهر العلم (١٠٧٦)، لأبي بكر الدينوري رحمه الله.

أذاب كل معنى إلا معنى واحد، وهو: أن تكون كلمة الله هي العليا

أذاب كل إرادة إلا إرادة واحدة، وهي: نشر الإسلام

فلا أخوة، ولا أبوة، ولا أمومة، ولا أي شيء، هو الإسلام، ولا شيء غيره

إن التأميل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء، والمرسلين، والدعاة، والوعاظ، والذين يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا، فلا يمتلك الدعاة إلا أن يعطوا للناس الأمل في الآخرة، فإذا صادف أمل الآخرة قلبا حيا ينبض بالإيمان؛ فترى العجب، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك؟! وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة؛ يقول عمير ابن الحمام ﷺ: **"يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بَخٍ بَخٍ[1]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ"**[2]، وجاء عوف بن الحارث وهو ابن عفراء، قال: **"يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُضْحِكُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ؟ قَالَ: غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا، قَالَ: فَأَلْقَى دِرْعًا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ"**[3].

وكذلك موقف أبي جهل، فإنه كان معاندا لآخر رمق، وكأن الغشاوة التي عينيه جزء من كيانه، لكنه أفضل بكثير من المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، يبطنون الحقد ويظهرون التسامح.

الجهاد كما سمعتم هو جهاد الدولة، فلا تأتي جماعة مسلحة تقاتل يمينا ويسارا ويسمون أنفسهم بالمجاهدين.

---

[1] وهذا اللفظ يقال للمدح والتعظيم.

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٩٠١).

[3] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤٩٩)، وقال الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة بلفظ مقارب (٦٦٤٣): منكر، وفي تخريج جوامع الكلم لحديث أبي نعيم رحمه الله في معرفة الصحابة (٥٥٤٥): حسن.

عباد الله لم تنزل آية جهاد واحدة في مكة، وكيف تنزل وهم ليسوا دولة تجاهد تحت رايتها.

لا يجب على آحاد الناس إلا جهاد الدفع، وهو إذا قاتله أحد ليغتصب ماله، أو عرضه، أو نفسه، أما غير ذلك فتحت راية الدولة، والدولة تحدد وتعرف في كل عصر على حسب هذا العصر، فدولة الإسلام في المدينة اعترف بها، حتى إن المكاتبات كانت موجودة بين الرسول ﷺ وملوك الدول.